

## كتاب ... وقضية للمناقشة حول تاريخ اليهود التوراة وعلاقتها بالتاريخ المصري القديم

ناجي علوش

**بات** من الضروري أن تعاد كتابة تاريخ اليهود. لأن ما تكشفه الحفريات، يتناقض مع كل التاريخ المكتوب، عن "بني إسرائيل" واليهود. ورغم ذلك، فإن تاريخ "بني إسرائيل" الذي يُعمم ويدرس حتى الآن، في كل العالم عامة، وفي الوطن العربي خاصة، يعتمد كلياً على ما عجمته الدوائر اليهودية، عن تاريخ "بني إسرائيل". ولذلك فإن كل الكتب، تتحدث عن الخروج، وغزو شرق الأردن، ومن ثم فلسطين، وقيام حكم القضاة ثم المملكة الموحدة أيام شاؤول وداود وسليمان. ويأتي بعد ذلك الانقسام إلى مملكتين، والغزوات الآشورية والبابلية، وسقوط القدس، سنة ٥٨٦ ق.م على أيدي نبوخذنصر والنفي إلى بابل، والعودة على يد قورش "الخ... الخ". ورغم أن علم الآثار الذي كشف الكثير من الحوادث التاريخية، خلال قرن من الزمان، لم يثبت شيئاً مما جاء في التوراة، بل قاد إلى نفي الكثير منه، فإن كتب التاريخ لم تتغير حتى هذه اللحظة، لا في أوروبا ولا الولايات المتحدة الأمريكية، ولا في وطننا العربي الكبير. وحين نشر توماس ل. تومبسون كتابه: "التاريخ القديم لشعب إسرائيل" فاجأ كثيراً من الكتاب والقراء في العالم، وكانت المفاجأة أكبر في الوطن العربي.

ورغم ذلك، فإن كتاب تومبسون لم يدرس في وطننا العربي، ولم تعكس صحفنا ومجلاتنا أية دراسة أكاديمية أو سياسية له، ولم يهتم أحد بالتعريف بهذا الجهد الكبير. حسب علمنا.

واليوم يصدر كتاب د. أحمد عثمان الذي كنا قد تعرفنا عليه من خلال كتاباته في جريدة الحياة، خلال السنتين الماضيتين، التي قدمها في هذا الكتاب: "تاريخ اليهود - الجزء الأول" (١) كما تعرفنا عليه من خلال كتابه ((غريب في وادي الملوك، التعرف على يويا على أنه البطريق يوسف (٢)

و"موسى: فوعون مصر - حل لغز أخناتون" (٣)

ولكن هذين الكتابين اللذين عثرنا عليهما مصادفة لم يُعرَف بهما في هذا الوطن العربي الكبير،

١ - العودة كانت على يد الامبراطور الفارسي (أشويروش) الذي تزوج اليهودية (استير) بعد أن قتل زوجته "وشتي" - التحرير -

ولم يترجما ، حتى الآن ، حسب علمنا ، ولم يثيرا أية مناقشات. ولذلك ، فإننا سنناقش الآن كتابه: "تاريخ اليهود"، تاركيين الكتابين الآخرين لفرصة أخرى.

إن صدور هذا الكتاب، يسهم في إثارة النقاش، حول تاريخ اليهود وعلاقتهم التاريخية بفلسطين، كما يسهم في طرح المعلومات التي قدمتها التوراة، والمعلومات التي قدمها علم الآثار.

يعمل المؤلف، خلال كل صفحات كتابه على تأكيد ما يلي:

أولاً أن التوراة، ليست كتاب تاريخ. وأن دراستها تكشف ما فيها من متناقضات، وما فيها من ابتعاد عن الواقع. وأما المتناقضات، فتعود إلى اختلاف المصادر التي أخذت منها. وعندما يناقش المؤلف قصة الوعد لإبراهيم، وكيف كان وعداً بقطعة من الأرض: "بالقرب من رام الله" إلا أن الأمر "كما يقول المؤلف، "تغير بعد ذلك" إثر النبوءة: "بأن سارة ستجب ولداً، وبأن: "ملوك شعوب منها يكونون" وهنا حدث نوعان من التغيير في الوعد:

**الأول:** كبرت الأرض الموعودة فجأة فأصبحت تشمل "كل أرض كنعان". ثم اتسعت حدودها لتشمل كل المنطقة، "من وادي العريش إلى النهر الكبير نهر الفرات"

**الثاني:** تم استبعاد نسل إبراهيم من ميراث الوعد، وحل محله نسل سارة: "عهدي أقيم مع اسحق الذي تلده لك سارة".

ويعيد المؤلف سبب هذا التناقض إلى أن القصة "تم جمعها من ستة مصادر مختلفة"، بعضها مكتوب وبعضها شفوي (٤)

وهو هنا يتفق مع د. كمال صليبي الذي يرى أن أسفار التكوين والخروج والعدد: "من بين الأسفار الخمسة الأولى من التوراة هي أسفار مركبة من عناصر مختلفة، منها ما هو قصصي، ومنها ما هو غير قصصي. وقد جمعت هذه العناصر في وقت ما من مصادر مختلفة ومستقلة بعضها عن بعض، سواء أكانت هذه المصادر تقاليد شفوية أو نصوصاً مدونة" (٥)

ثم يمضي د. صليبي في دراسة التوراة من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى يوسف، ويبين تداخل الأساطير ، وتكشف أن هناك "شخصيتين اسمهما أبرام، وكلاهما يسمى أيضاً "أبراهام" ، فهناك ابرام عبراني، وهناك ابرام آرامي" (٦)

ويضيف د. صليبي أن التوراة تتحدث عن شخصيات أخرى، باسم أبرام، يذكر منها ١- ابرام التكوين (الإصحاح ١٥) (٧)

٢- ابرام الشباعة وهو ابرام التكوين الذي أعطي زوجاً عاقراً، هي ساري (٨)

٣- ابرام اليمن (٩)

وبالتالي، فإن هناك خمسة وجوه لإبراهيم (١٠)

ويواصل د. صليبي تبيان التعدد والتداخل في قصص التوراة كما هي في قصة يوسف، مثلاً (١١)

ولعل في إشارات الاستاذ أحمد عثمان إلى اقتباسات التوراة من التراث المصري القديم، ما

يفيدنا في فهم التوراة فهماً صحيحاً، وهو ما لم تلقَ عليه أضواء كاشفة كافية، من قبل، مع أن الاستاذ شفيق مقار، ألقى بعض الأضواء في هذا الميدان (١٢).

ومن الاشارات الجديرة بالذكر هنا، ما يلي:

١- إن الشعار التوراتي، من النيل إلى الفرات، هذا الوعد الذي أعطاه الله لنسل سارة. ما هو إلا حدود الإمبراطورية المصرية، في مرحلة تاريخية معينة (١٣)

٢- إن قصة دخول داود إلى القدس، هي قصة دخول تحتس التآلث. إذ ليس هناك في الآثار ما يثبت أن داود دخل القدس فالقدس، حوالي سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد، كانت قرية صغيرة ولم تتسع، كما يشير تومبسون إلا حوالي سنة ٧٠٠ ق.م. وليس في القدس أو فلسطين أو آثار وادي النيل والرافدين ما يشير إلى وجود داود أو سليمان، ولقد استهدف الأستاذ أحمد عثمان التأكيد على ذلك. فأشار إلى أننا لم نحصل على تفاصيل هذه القصة، المنسوبة إلى داود من أي مصدر تاريخي، ولم ترد الإشارة إلى داود بني إسرائيل -بالاسم أو الكتابة- خارج الكتب الدينية" ولذلك: "كان من الطبيعي أن يحاول الأثريون في العصر الحديث العثور على الأدلة التي تؤكد صحة هذا الجزء من القصة، كما ورد في سفر صموئيل الثاني، من كتب العهد القديم.. (١٤) ولم يستطع الآثريون أن يجدوا هذا الدليل في الآثار.

ولذلك فإن الأستاذ أحمد عثمان، يرى أن (قصة دخول داود "بني إسرائيل" إلى القدس استعارها كتبة العهد القديم من حياة تحتس التآلث، بعد إجراء بعض التعديلات عليها، وأدخلوها في قصتهم" (١٥)

٣- إن قصة سليمان وحكمه وتعدد زوجاته، وبناء الهيكل، تنطبق على المنحطب التآلث، وبينما لا نجد في الآثار ما يؤيد قصة سليمان، نجد ما يؤكد ذلك بالنسبة لامنحوتب، ولكن قبل خمسة قرون، ولقد كانت في: "شمال قلعة القدس" حامية مصرية. وكل الدلائل تشير إلى أن الملك المصري هو الذي بنى مجداً هناك". ويضيف الأستاذ أحمد عثمان أن التفاصيل التي ذكرت حول هيكل سليمان، تتفق مع التفاصيل التي وردت "عن أشكال المعابد المصرية التي بناها الملك المصري في بيسان ومجدو وحاصور"

وجاء الكشف عن القصر الذي بناه امنحوتب غرب الأقصر، ليؤكد: "أنه كان مكوناً من البيوت نفسها حتى ورد ذكرها في قصة سليمان. وما زال خشب الأرز اللبناني قائماً هناك إلى يومنا هذا (١٦) وهناك قصص أخرى.

وبما حبذا لو استرسل الأستاذ أحمد عثمان في دراسة علاقة التوراة بالتراث المصري القديم في جوانب أخرى، وقدم المزيد من التفاصيل. وتستحق وقفة مع كلمة "صهيون"، ليبين الأصل المصري لهذه التسمية وهي "صألون" وكانت أون أو عيون تطلق على "عين شمس". ثم اطلقت على طيبة. وكانت القدس، في القائمة المصرية، تسمى "قادش" أي القدس. ثم بات يطلق عليها، أورشليم، بعد أن دخلها تحتس سلماً، ثم أطلق عليها "صألون" أي المدينة المقدسة للبرية، ويرى الأستاذ أحمد عثمان أنها سميت كذلك لأنها: "تقع في منطقة جبلية خارج الحدود المصرية (١٧)

ثانياً: إن أساطير التوراة، صارت تاريخ "بني إسرائيل" وتاريخ فلسطين، وعلى "أساس هذه الأساطير قام بناء تاريخ بني إسرائيل الذي أخذته شعوب العالم على اعتبار أنه قضية مسلمة" (١٨)

ويعود الأستاذ أحمد عثمان لتأكيد هذه الحقيقة، عندما يتحدث عن القدس، فهو يشير إلى: "أن الدراسات التاريخية الحديثة عجزت تماماً عن إثبات أي علاقة بين قبائل بني إسرائيل ومدينة القدس قبل منتصف القرن الخامس ق.م". ويضيف: "إلا أن المراجع التاريخية، لا زالت تصر على قبول روايات العهد القديم. فيما يتعلق بهذه المدينة..." على اعتبار: "عدم وجود مصادر تاريخية، تغطي تلك الحقبة". ولكن حين ظهرت الأدلة التاريخية التي: "تم العثور عليها، خلال هذا القرن، نتيجة أعمال الحفريات..." جرت محاولات مستمرة متعددة لمنع ظهور العديد... من هذه الأدلة، لأنها: "تعارض بشكل واضح وصريح مع هذه الروايات" (١٩)

وإذا كان من الضروري التنبيه لهذه الحقيقة، فقد بات من الضروري مناقشة القضية الأساس، وهي: لماذا صارت الأساطير التوراتية أساس تاريخ اليهود والعرب والشعوب الأخرى؟ وكيف استطاع الذين ألفوا التوراة التي بين أيدينا، والتي لا يستطيع قارئ عاقل أن يعتبرها كتاب دين لأنها كتاب عصيان مستمر لله، وكتاب حرب وقتل وخديعة، أن يفرضوا هذه التوراة كتاباً مقدساً، وأن يجعلوا منها أساساً لكتابة التاريخ القديم لهذه المنطقة الممتدة من الفرات إلى النيل؟

إن هذا الموضوع لم يناقش بعد. وهو يحتاج إلى مناقشة معمقة مفصلة لأن الذين جاؤوا بالتوراة من بابل، مع الغزو الفارسي، لم يكونوا الذين سبّاهم نبوخذ نصر، كما يقول توماس تومسون. ولم يكونوا قوة دولية، كما هي الصهيونية اليوم. وكانوا على عدااء مع جماهير بلاد الشام، كما تقول التوراة: ["ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون أن أسوار أورشليم قد رُمّت والشجر ابتدأت تسد غضبوا جداً" نحemia أ-٤-٧] كما كانوا على عدااء طاحن مع الامبراطورية الرومانية، حتى إنها دمرت الهيكل الذي بني في عهد الاحتلال الفارسي، وقضت على السكان اليهود (٢٠)

وبعد ذلك لم تقم لليهودية سلطة. وكانت دولة فارس التي تبنت المشروع اليهودي، قد هزمت. فكيف استطاع مروجو التوراة أن يجعلوها مرجعاً تاريخياً؟ وكيف حدث ذلك في عهد الامبراطورية العربية الإسلامية؟

إن المؤلف لم يناقش ذلك، كما لم يناقشه أحد، حسب علمنا من قبل. وهو ما نرى أنه بحاجة لدراسة، وأنه يستحق أن نقف عنده.

ويبقى بعد ذلك أن نشير إلى بعض الملاحظات حول الكتاب وأبرز هذه الملاحظات:

١- أن الكتاب، لإله نشر على حلقات في صحيفة، ولأنه يكتب كاملاً، ثم نشر، افتقر إلى كثير من المستلزمات الأكاديمية، ومن ذلك ذكر المراجع والهوامش، مثلاً. إذ أن الكتاب يخلو تماماً، من أي هامش أو مرجع. وهناك أسلوب الكتابة الصحافية.

٢- إن الكاتب، أشار مرتين إلى المؤلف توماس تومبسون، الذي فصل من عمله، كما يقول، ولكن دون الاستفادة من مادة كتاب تومبسون، أو إبراز الانجازات التي حققها (٢١).

٣- إن المؤلف الأستاذ أحمد عثمان ذكر مسلة مرنبتاح، وأكد أنها حملت ذكر "إسرائيل" دون أن يُعرّف بالمسلة، وبالنقاش الذي يدور حول ورود كلمة إسرائيل فيها. ولقد رفض توماس تومبسون قبول فكرة الربط بين ما جاء في مسلة مرنبتاح وإسرائيل (٢٢). وهناك نقاش حول المسلة طويل عريض،

يستحق أن نقف عنده (٢٣). وقد ناقشنا ذلك من قبل (٢٤) ولنا وجهة نظر، وسنقدمها في دراسة لاحقة.

٤- إن المؤلف يؤكد وفود الفلسطينيين من بحر إيجة، بينما ينفي تومسون ذلك اعتماداً على دراسة الآثار. ومن رأي تومسون أن فكرة وجود الفلسطينيين في فلسطين "اختراع اسرائيلي" كما أن فكرة دولة داود - سليمان اختراع أيضاً.

وهناك بعض ملاحظات، حول الدقة الأكاديمية، فالمؤلف، يذكر مسألة مرتبّاح، ووجود "إسرائيل فيها" (٢٥) ولكنه يعود، فيقول: "وعندما ننقل إلى مصادر التاريخ المصري القديم لمحاولة استقراء الأدلة التي تشير إلى خروج بني إسرائيل من مصر، نجد أنه -على الرغم من أن اسم إسرائيل لم يوجد صراحة- إلا أن المصادر المصرية، تؤكد ما ذهبنا إليه من قبل، عندما قلنا: أن رمسيس الأول، كان هو فرعون الخروج. ذلك أنه، بعد فترة وجيزة من موت هذا الفرعون، تمت محاولة كبيرة لبعض القبائل للخروج من سيناء، ومهاجمة مدينة غزة" (٢٦)

وحين يتحدث المؤلف عن كتاب القضاة، يقول: يحتوي هذا الكتاب على مجموعة من القصص لبعض أبطال بني إسرائيل الذين ظهروا خلال تلك الفترة. وكانوا يعملون على مساعدتهم في الخروج من المشاكل التي بدؤوا يتعرضون لها، من محاولة الأقوام الكنعانية الأخرى -وأهمهم الفلسطينيون إخضاعهم لسيطرتهم" (٢٧)

والمؤلف هنا، يجعل الفلسطينيين كنعانيين، مع أن المصادر التاريخية التي تؤكد وجود الفلسطينيين تؤكد أنهم قبائل غربية من بحر إيجة، ورغم تأكيد تومسون أن وجود الفلسطينيين مجرد اختراع (٢٨) فإن المؤلف لم يناقش هذه المسألة، واكتفى باعتبار الفلسطينيين كنعانيين. كما أن الكتاب يؤكد قصة الخروج والغزو ووجود قبائل بني إسرائيل التي نفاها تومسون كلها، دون أن يناقش نفي تومسون، أو يؤكد أية براهين تتعلق بهذه القضايا.

نتوقف هنا، لنؤكد أهمية كتاب الأستاذ أحمد عثمان وضرورة دراسته، وتحديد أهمية ما يقدمه

### الحوامش:

- ١- أحمد عثمان: تاريخ اليهود- الجزء الأول. مكتبة الشروق. بلا تاريخ.. عدد الصفحات ٢٠٨
- 2 - ahmed osman: stranger in the valley of the kings. the identification of yuya as the patiatich joseph . paladin, 1989.
- 3- ahmed osman : moses, pharaoa of egypt the mystey of akhenaten resolved. paladin 1991
- والمؤلف كتاب ثالث، لم نره بعد، بعنوان

